تصدير الطبعة الثانية

مرة أخرى لماذا نحن "ضد العولمة" ؟!

"العولمـــة" ذلك المصطلح الذى شاع فى عصرنا لدرجة أصبح معهـــا "موضـــة" المنتديات والندوات والمؤتمرات الثقافية؛ فمعظمها يـــدور اليـــوم فى عالمنا العربى والإسلامى حول ما العولمة؟! وما موقفنا منها؟! وهل هى خير أم شر؟! هل تعنى فرض الهيمنة الغربية وبالذات الأمريكية على العالم بهدف طمس الهويات الأخرى وسحقها لصـــالح هوية واحدة للعالم ظاهرها غربى وجوهرها أمريكى؟! هل تعـــنى كما يتردد فى الخطاب الفلسفى والسياسى الغربى الحوار بين الحضارات وتزاوج الثقافات بهدف إيجاد حد أدنى من تبادل المصالح والقضاء على التطرف والمتطرفين الذين لا يعرفون لغة الحوار ولا يستسيغون الالتقاء الحضارى بين الشعوب؟!

وإذا كـــانت تعنى الحوار بغرض التقارب الثقافى بين الشعوب وتـــبادل المصالح الاقتصادية بينها فهل نبادر بالمشاركة فى الحوار؟ ومـــا جـــدوى الحوار مع شعوب أدمنت الاستعلاء والتعالى وفرض إرادتهـــا على الآخرين؟!. وإذا كان الحوار يتضمن تلقائياً صورة من صـــور الصراع بين الثقافات والحضارات. فما دورنا وما حجمنا فى هـــذا الصـــراع الثقافى والحضارى؟! وهل نحن قادرون على القيام

بـــدور إيجـــابى فعال فى هذا الصراع ؟! وهل نمتلك أدوات التحدى الحضـــارى بمـــا أفـــرزته مؤخـــراً مـــن تقنيات تكنولوجية معقدة ومـــتطورة؟! وإذا لم نكن نمتلك شيئاً منها أو نمتلك ما لا يكفى منها فمـــا الســـبيل لامـــتلاك الصور المتعددة التكنولوجيا وكم من الوقت نحـــتاجه للـــتدريب عـــليها وسلوك الطريق الحقيقى للإبداع فيها بما يجعلـــنا نقف على قدم المساواة مع شعوب العالم المتقدمة التى سبقتنا فى هـــذه المجـــالات؟! وكيـــف يمكـــن توظيف هذه التكنولوجيا بعد امتلاكها فى كافة مجالات الحياة المعاصرة لشعوبنا؟! وهل يسمح لنا الآخر بامتلاك هذه التكنولوجيا المتقدمة ومنافسته فيها؟!

هـــذه الأسئلة وغيرها كثير أثقلت كاهل العقل العربى ودارت حولها الكتابات والأبحاث والمؤتمرات والندوات خلال الأعوام الثلاثة الماضية بعد صدور كتابنا هذا "ضد العولمة" فى طبعته الأولى. وكم كـــنت ســـعيداً أن أصبحت قضية "العولمة" قضية تفرض نفسها بهذه الصورة الملحة ليس فقط على عقول المثقفين العرب، بل أيضاً على عقـــول الساسة والاقتصاديين وكل المهتمين بالشأن العالمى وعلاقتنا بالآخر على كل المستويات.

ومصدر سعادتى كان يكمن فى أننا أصبحنا قادرين الآن على التفاعل السريع مع الفكر العالمى والأحداث العالمية وأصبحنا قادرين

كذلك على نقل الوعى الفكرى النظرى إلى مجال العمل السياسى والاقتصادى بأسرع صورة ممكنة. وأن كنا فى هذا الإطار نطلب المزيد من التفاعل بين النظر والعمل لنختصر المسافة الزمانية بين ما يفكر فيه المفكرون وما يتحدث عنه المنظرون، وبين ما يجرى على ساحة العمل الوطنى فى كافة المجالات.

وكم كنت سعيداً بالتفات الأصدقاء من المثقفين والكتاب إلى صدور كتابى هذا والتنويه عنه والتنبيه إلى أهميته رغم أنه لم يعالج القضية بكافة جوانبها ؛ بل ركز فقط على جوانبها الثقافية؛ فقد كان احتفاء صحيفة الأهرام القلعة الثقافية الكبرى فى مصر بالكتاب متنوعاً حيث نوه عنه الأصدقاء فى صفحة "دنيا الثقافة" و"الصفحة الأدبية" وسمحوا بنشر ما كتبه عنه المثقف النابه والأديب المتفرد الصديق الدكتور ماهر شفيق فريد[1] وتوجت "الأهرام" هذا الاهتمام بالكتاب بأن أعطاه نادى الأهرام للكتاب الجائزة التقديرية فى المعرض الدولى للكتاب دورة ١٩٩٩م. كما كان احتفاء صحف "الوفد" و"أخبار الأدب" و"الأخبار" وغيرها ممن لا أعرفه من الصحف المصرية والعربية أبلغ الأثر فى نفسى. كما كانت للرسالة التى تلقيتها من الأستاذ الدكتور صفى الدين أبو العز[2] أستاذ

(١) انظر ما كتبه الدكتور ماهر فى مراجعته النقدية فى نهاية الكتاب، ملحق (٢).
(٢) انظر نص الرسالة فى نهاية الكتاب، ملحق (١) .

الجغرافيا غير المتفرغ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ورئيس الجمعية الجغـرافية المصرية ووزير الشباب الأسبق بالغ الأثر فى دفعى دفعاً لمـتابعة البحث فى موضوع العولمة وخاصة فى جانبها الاقتصادى فقمـت بمراجعة نقدية لكتاب "فخ العولمة" الذى كتبه "عالمان ألمانيان فى الفكـر الاقتصـادى والاجـتماعى وتكرمت سلسلة عالم المعرفة بالإشـراف عـلى نقله إلى العربية[٣] كما قمت بعمل بحث آخر عن "العولمـة الثقافية بين الإمكان والاستحالة"[٤]. وعمقت الأمر أكثر فى كـتاب "فى فلسـفة الـثقافة" وخاصة فى قضية العلاقة بين "الثقافة والتقدم" [٥].

إن "العولمـة" على الصعيد الاقتصادى أصبحت واقعاً ملموساً بتوقيع معظم دول العالم على اتفاقيات الجات وان كانت شعوب العالم الفقيـرة، بـل وأحيانـاً الغنية بدأت تدرك مخاطرها على صعيد ما يـترتب عليها من تكديس لرؤوس الأموال فى يد فئة قليلة لا تتعدى خُمـس سـكان العالم مما يهدد بأن يتحول البشر إلى مجتمع عالمى

(٣) انظر نص مراجعتنا النقدية لهذا الكتاب فى كتابنا : بين قرنين – معاً إلى الألفية السابعة، دار قباء للطباعة ، القاهرة ، ٢٠٠٠، ص ٤٣–٥٨.

(٤) نشر هذا البحث فى كتابنا : فى فلسفة الثقافة، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٩ المبحث الثانى.

(٥) نفسه ، المبحث الثالث .

يســوده ويتحكم فيه هذه الفئة القليلة ويتحول الأربعة أخماس الأخرى إلى فقــراء يتسولون ما يفيض عن سلة هؤلاء وما يسمحون به لهم!! إن الــبطالة التى بدأت تنتشر وتزداد نسبتها عاماً بعد عام فى معظم دول العــالم حتى الغنية منها، وحرية انتقال رؤوس الأموال وتعملق الشركات الكبرى واتحادها فى مواجهة الكيانات الاقتصادية الصغيرة يهــددان بكارثــة اقتصادية، كما يهددان بكوارث سياسية عديدة فى مقدمــتها قــلة هيــبة الدولــة وانعدام دورها الاقتصادى فى حماية محدودى الدخل وفى حماية المشروعات الاستثمارية الوطنية صغيرة كانت أو كبيرة!!

إن التعمــلق الاقتصادى للشركات العالمية الكبرى يجعلها فى كــثير مــن الأحيان تتحدى دولاً بأكملها ويجعل النظم السياسية لهذه الدول خاضعة لها وألعوبة فى يدها. كما أن تآكل الهياكل الاقتصادية للشــركات الصغرى وانعدام فرص الاستثمار والاسترزاق لأصحاب المشــروعات الصــغرى يعــنى فى أبسط ما يعنى فقدان الاستقلال الاقتصــادى للدول التابعة ويعنى ضياع فرص نمو وتحسين انتاجها الوطــنى ممــا يحولها فى النهاية إلى مجرد منبع لانتاج المواد الخام لــلدول الصــناعية والشركات الكبرى من ناحية، ومصب لتصريف منتجاتها من ناحية أخرى.

إن الحيـــاة الاقتصادية لشعوب العالم الفقيرة ستكون جحيما ان لـــم يتم تدارك المخاطر المترتبة على "العولمة الاقتصادية"، وان لم يـــتم التوزيع العادل لثروات العالم المادية على شعوبه كلٌ بحسب ما يمـــلك مـــن موارد وبحسب ما يستطيع تقديمه من منتجات صناعية وتكـــنولوجية. ولا شك أن العبء الذى تحملته شعوب العالم المسمى "ثـــالث" حـــتى الآن تكفى لأن تنزل الدول الصناعية الغنية من عليائها وأن تستمع لصوت العدالة والعقل فتعيد النظر فى سياستها الرامية إلى إذلال شـــعوب العـــالم الفقير بالسيطرة على مصادر مواردها الطبيعية واستغلالها بأرخص الأسعار ثم بيعها كمنتجات لها بأغلى الأسعار!!

إن أول مـــا ينـــبغى أن يتخذ من إجراءات فى هذا الصدد هو إلغـــاء كافـــة ديـــون الدول الفقيرة لأنها فى الغالب من تبعات تلك السياسات الاقتصادية الغربية المستغلة ؛ وثانى ما ينبغى أن تفعله هو تـــنظيم مـــا يســـمى باقتصاد العولمة ليصبح اقتصاداً عادلاً يراعى مصـــالح هـــذه الدول الفقيرة ويزيح أى معوقات تعوق نمو اقتصادها المحـــلى وازدهـــار صـــناعتها الوطنية. ويكفينا هنا القول بأن ترك مخاطر العولمة حتى تبلع مداها برغم تحذيرات كل المتخصصين فى العـــالم ســـيؤدى حتماً إلى أن تكون الدول الغنية والشركات العملاقة متعدية الجنسيات هى أول من يدفع الثمن!!

أمـــا "العولمـــة" عـــلى الصعيد السياسى فهى فى الواقع دعوة غربية لأن تتحول النظم السياسية فى العالم أجمع للنظام الديمقراطى الـــنيابى المعمـــول بـــه فى الغرب. ورغم تقديرنا الشديد لهذا النظام السياســـى باعتـــباره يـــتيح الفرصـــة لـــتداول السلطة بين الأحزاب المختـــلفة، كمـــا يتيح الفرصة أمام الشعوب لتجرب أكثر من سياسة ويتيح الفرصة أمام الجميع للمشاركة السياسية ويتيح الحرية لممارسة الحياة الفردية وحماية حقوق الأفراد العقائدية والفكرية وفى الملكية.. الخ.. إلا أننا لابد أن نعى أن لكل شعب ولكل دولة ظروفها السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية المختلفة. وأن ما يصلح من نظم سياسية فى دولـــة قد لا يكون هو الأصلح بإطلاق!! إننى شخصياً أؤمن بأنه لا تهـــم صورة النظام السياسى للدولة سواء كان ملكياً أو جمهورياً، ديمقـــراطياً أو استبدادياً دكتاتورياً بقدر ما يهمنا فى النهاية أن يُعبر هذا النظام السياسى خير تعبير عن البيئة التى نشأ فيها وعن الشعب الـــذى أفـــرزه بشرط أن يتاح للأفراد فى ظل هذا النظام أو ذاك أن يعيشـــوا حيـــاتهم بســـهولة ويسر وأن تتوافر الشروط اللازمة لحفز طاقاتهم والتعبير عن إبداعاتهم دون خوف من أى سلطة كانت!

إننى أتفق تماماً مع مقولة جان جاك روسو – فيلسوف التنوير الشهير– الذى بحث فى أنواع الحكومات وحينما تساءل عن أصلحها قال: إن أصلح أنواع الحكومات على الإطلاق هى ما يكثر فى عهدها الناس ويعمرون البلاد دون وسائل خارجية من تجنس أو إقامة مستعمرات أو خلافه، وأن الحكومة الأسوأ هى التى يقل فى عهدها الشعب ويهلك!!

إن هذا المعيار لصلاحية الحكومة يعنى أن الحكومة الأفضل أيا كانت صورتها وكيفية إفرازها من قبل الشعب، هى الحكومة القادرة على إقامة كل الممكنات أمام شعبها ليتكاثر ويعيش حياته مستمتعاً بحرياته وبخيرات بلده إلى أقصى حد!!

ومن هنا أقول أنه ليست الديمقراطية بصورتها الغربية المعاصرة هى بإطلاق أصلح صور الحكم؛ فهى لم تكن كذلك بالفعل إلا بما أتاحته من ممكنات أمام شعوبها وبما أتاحته من حياة كريمة حرة لهؤلاء الأفراد، فضلاً عن أن أفضل صور نظم الحكم الديمقراطى فى الغرب الآن لم تعد تتيح هذا التداول للسلطة بشكل مطلق أو متاح، بل أخذ الأمر فمعظم الأحوال صورة تبادل كراسى الحكم بين حزبين أو ثلاث على الأكثر، وتلعب آلة الإعلام وصناع الحكام الدور الأكبر فى إظهار الأمر على أنه دائماً اختيار الشعب،

بينما الواقع يقول إن اختيار الشعب أصبح موجهاً بما تصنعه آلات الدعاية وصناعة الزعامة من وسائل لجذب الرأى العام حتى أنه يمكن القول إن الديمقراطية بصورتها الغربية المعاصرة أصبحت شبه تمثيلية محبوكة لها مؤلفها ومخرجها. وكل ما على الشعب هو أن يشارك فى الحبكة الدرامية بالذهاب إلى صناديق الاقتراع!!

إن الفرق بين الديمقراطية فى الغرب وبين الديمقراطية فى بلاد الشرق وبلدان العالم الثالث إنما هو ذات الفرق بين مسلسل درامى غربى ومسلسل درامى شرقى، فالأول تتسارع فيه الأحداث وتتلاحق فيه التغيرات بحبكة درامية محكمة ، والثانى أحداثه بطيئة مملة ونهايته معروفة منذ بدايته!! إنه فارق الخبرة فى التأليف والإخراج والتمثيل بين الغرب والشرق!! فلا داعى إذن لأن تتغنى الدول الغربية بنظامها السياسى باعتباره الأمثل فى الحفاظ على الحقوق والحريات الأساسية للأفراد، لأن هذا النظام نفسه هو ما يكيل بمكيالين فى كل الأحداث العالمية ، وهو نفسه الذى ينتهك حريات وحقوق الشعوب الأخرى بصور متعددة وهو نفسه الذى يدافع ويحمى قوى الشر والجريمة فى مختلف أنحاء العالم الأخرى!! وليس أدل على ذلك من وقوف سدنة النظام العالمى الجديد فى صف دولة لقيطة زرعوها بأيديهم فى المنطقة العربية هى إسرائيل

ومساندتها وهى تبيد شعب أعزل من أى سلاح بكل ما تملكه من أسلحة مدمرة فتاكة. وهذا الشعب المسلوب الأرض والحرية والكرامة الشعب الفلسطينى لا يطالب إلا بجزء من حقه على جزء من أرض كان يملكها كلها من خمسين عاماً فقط!! أى حرية، وأى عدالة وأى حقوق للبشر يراعيها إذن مثل هذا النظام المطلوب فرضه فرضاً فى ظل "العولمة السياسية"!!

أما فيما يتعلق "بالعولمة الثقافية"، فهى فى اعتقادنا مستحيلة لأسباب عديدة فصلناها فى بحثنا المنشور بكتاب "فى فلسفة الثقافة"، ويمكننا أن نزيد هنا أن العولمة الثقافية تعنى فيما تعنى السيادة لثقافة معينة هى بالطبع الثقافة الغربية عامة والأمريكية على وجه الخصوص وبالطبع فإن أسباب انتشار وسيادة هذه الثقافة هو تمكن أصحابها من امتلاك أدوات السيطرة الإعلامية. بمختلف صورها على العالم فضلاً عن سيادة الأنماط الغربية فى الفن والأدب والاقتصاد والأزياء حتى نظم الأكل والشراب!! إن هذه السيادة فى اعتقادنا هى مجرد سيادة ظاهرة لا تتعدى السطح إلى الجوهر؛ فمهما بدا أمامنا تشكل شعوب العالم الأخرى بهذه الأنماط الغربية فى الثقافة والسلوك، فإن هذا التشكل إنما هو تشكل كاذب فيه يتشبه المغلوب بصفات الغالب على حد تعبير ابن خلدون – لكن هذا التشكل الكاذب

سـرعان ما يزول أو سرعان ما تبدو سطحيته إذا ما عبرنا المظاهر متسـائلين عن الجوهر، فسنجد حينئذ أن أى شعب مهما كانت ثقافته بالنسـبة للـثقافة السائدة، أو الغالبة هامشية ومستهجنة، سنجده يعتز بثقافـته المحـلية – الوطـنية ويعتـبرها عنواناً على هويته وذاتيته المسـتقلة. وقـوة هـذه الثقافات الوطنية آتية من أنها ليست مجرد شـعارات يرفعها أصحابها وإنما هى تتخلل شرايين وأفعال أصحابها وكأنهم معجونون بها.

إن قـوة أى شعب من قوة ثقافته ومن قدرتها على التعبير عن نفسـها بشكل إيجابى فعال، ولا يملك أحد، أى أحد مهما كانت قوته الاقتصادية والعسكرية ومهما كانت أدواته التكنولوجية فتاكة ومهيمنة أن يفـرض ثقافته الخاصة على شعب يمتلك ثقافة خاصة قوية فاعلة وذات عمق تاريخى قادر على التجدد والتطور المستمر. وهكذا فإننى أرى أن ثقافتـنا الغربية – الإسلامية لا يمكن بأى حال أن تذوب أو أن تنقرض أمام أى ثقافة أخرى لأنها ذات عمق دينى وتاريخى قابل للـتجدد والـتطور المسـتمر بحسـب قدرة أصحابها على الاجتهاد وامـتلاك الأدوات المعرفية لأى عصر يعيشونه. كما أننى أرى من جـانب آخـر أن الـثقافة الغـربية السائدة لا تزال حتى الآن برغم محـاولات الغـربيين تطويرها وتلقيحها بالعناصر التى تنقصها من الثقافات والحضارات الأخرى. ثقافة ذات بُعد واحد هو البُعد المادى

الشـــهوانى، فـــهى ثقافة تركز الفرد وتستهدف إشباع رغباته المادية بكـــل الوســـائل ولا تهتم بالأبعاد الروحية والأخلاقية إلا فى أضيق الحـــدود!! وثقافـــة هذا شأنها وتلك خاصيتها لا يمكن أن تكون قابلة للـــتعميم والســـيادة الدائمـــة، فهى ان سادت حقبة زمنية أو قرن من القـــرون. أو حتى ألفية كاملة فإنها لا يمكن أن تسود دائماً حتى لدى مـــن أبدعوها وآمنوا بها!! ولعل هذا هو الشاغل لأتباع ما يسمى فى الغـــرب "ما بعد الحداثة". فالما بعد حداثيون يرون أن الحداثة الغربية الـــتى كـــانت تتغنى فقط بالتقدم القائم على العقل والعلم قد استنفدت أغراضها وأنها لابد أن تتجدد وأن يلتفت الغربيون إلى أن التقدم ليس مـــرهوناً بالتقدم المادى التقنى وإنما فى الإنسان جوانب أخرى ينبغى الاهتمام بها والالتفات إلى ضرورتها.

إن المعوقات التى تعوق ما يدعونه بالعولمة الثقافية إذن كثيرة رغـــم مهـــارة الغربيين فى امتلاك الوسائل المتجددة لنشرها وجذب الآخـــرين إليهـــا ورغـــم كل الاتفاقيات الموقعة فى إطار ما يعرف باتفاقيـــات الجانب وخاصة ما يخص الجانب الثقافى منها. وأهم هذه المعوقـــات بـــلا شك هو ما أشرنا إليه من أن الثقافة المراد سيادتها وجعلها ثقافة العالم أجمع وهى الثقافة الغربية هى كما قلنا ثقافة ذات بُعـــد واحـــد بدأ طليعة أصحابها أنفسهم يضيقون بها!! فضلاً عن أن ثقافات الشعوب الأخرى وخاصة الشعوب ذات الحضارات الضاربة

بجذورهـــا فى أعماق التاريخ لا يمكن أن تذوب أو تستسلم أمام هذه الثقافة الغازية أو المراد فرضها وسيطرتها!!

إن الثقافة كما أقول دائماً هي شأن عقلى قبل أن تتسرب وتبدو واضـــحة فى سلوك صاحبها. وأى ثقافة يراد فرضها يمكن أن تؤثر فى المتـــلقى بصور شتى ويمكن له أن ينبهر بها لفترة ما من الزمن لكـــنه أى المتـــلقى صـــاحب الثقافة الأصلية القوية بعناصرها الفنية بـــتاريخها بمـــنجزاتها وبقدرتها على التجدد والتطور – سرعان ما يـــنفض عنه غبار التأثر والتشكل الكاذب إذا ما اتضح أمامه سطحية الـــثقافة الغازيـــة وإذا ما نضج ليتساءل: هل الأفضل أن أكون تابعاً لمـــثل هذه الثقافة ذات البُعد الواحد أم أن أكون إنساناً متوازناً أحافظ عـــلى ثقافـــتى الخاصـــة التى هى عنوان هويتى وأعزز ما فيها من ايجابيات وأتجاوز عما فيها من سلبيات.

إن الـــثقافة لدى أى شعب أشبه بالكائن الحى القابل لأن ينمو وأن يـــتفاعل مـــع العناصر الخارجية لكن لا يقبلها إلا إذا أصبحت مادتها شبيهة بمادته. وهو نفسه (أى الشعب) قادر بما يمتلك من عقل أن يحـــلل ويقـــارن ويستفيد من عناصر الثقافات الأخرى فى تطوير ثقافـــته الوطـــنية بدون أن يتنازل عن هذه الثقافة وهى عنوان هويته وذاتيته.

إن الأقـرب إلى التصـديق هـو القول بأن الثقافات يمكن أن تـتحاور وأن تتفاعل وأن يتأثر أحدها بالأخر وعادة ما يكون التأثير الأكـثر مـن جانب الثقافة الغالبة السائدة لكن هذا التأثير لا يمكن أن يصـل مـداه إلى محـو الثقافات المتأثرة أو المنفعلة خاصة إذا كان أصـحاب هذه الثقافة المنفعلة يملكون أدوات الدفاع عنها والحوار مع الآخـر وخاصـة إذا كان مضمون هذه الثقافة نفسها مضموناً قابلاً للتجدد والتطور.

إن أدوات العولمـة التكـنولوجية كالأقمـار الصناعية وتدفق المعلومات عبر أجهزة الكمبيوتر ووسائل البث المباشر إذاعية كانت أو تـليفزيونية أو غيرها هى أدوات يمكن للجميع استخدامها وبنفس الكفاءة لا فرق فى ذلك بين أصحاب ثقافة غالبة أو مغلوبة، بين ثقافة سـائدة أو ثقافة هامشية. فالكل قادر على امتلاك هذه الأدوات والكل يمكـنه بـث ثقافته ويمكن للمتلقى أيا كان موقعه فى الغرب أو فى الشرق ، فى الشمال أو فى الجنوب أن يؤثر بثقافته فى الآخرين بقدر ما يتأثر بثقافتهم.. المهم هو أى عناصر الثقافة هو الأفضل والأجود والأكـثر مراعاة للتوازن بين مطالب الجسم ومطالب العقل والروح فى الإنسان. إن مخاطبة العقول والأرواح ستتفوق حتماً وفى النهاية على مخاطبة الغرائز والمطالب الشهوانية للأجساد!! إن كسر شوكة الـثقافة الغربية يكون ببساطة بامتلاك نفس الأدوات التى مكنتها من

الانتشار والهيمنة . وحينما يملك أبناء الثقافات الأخرى هذه الأدوات ويستخدمونها بنفس الكفاءة ويبثون من خلالها ثقافتهم ستنفتح أمامها عقول الغربيين وتتعلق بها أرواحهم لأنها هى الثقافات الأكثر مراعاة للتوازن الإنسانى وهى الأكثر إدراكاً لخيرية الإنسان والأقدر على تفجير هذه الخيرية وتفصيلها.

إن حديثنا السابق عن الجوانب المختلفة للعولمة يقودنا إلى نقاط عديدة آثارها بعض الكتاب والمثقفين حول موقفنا الرافض لها! ففى الحقيقة أن اختيارى لعنوان "ضد العولمة" ليس المقصود به أبداً الرفض المطلق للعولمة، بل هو عنوان يثير الجدل ويلهب العقول للتساؤل والحوار حولها؛ حول معناها وصورها المختلفة وجدواها فى عالم اليوم. فالحقيقة التى لم يعد أحد يشكك فيها هى أن العولمة أصبحت أمراً واقعاً وليست مجرد فرض سنبحث عن مدى صدقه أو مدى تحققه!! فقد أصبحت العولمة أمراً واقعاً بمجرد توقيع معظم دول العالم على اتفاقيات الجات وملاحقها، أصبحت أمراً واقعاً حينما فرضت نفسها على كل العقول فى جميع أنحاء العالم. والكل أصبح يتساءل عن جوانب الخيرية فيها ويحاول التقليل أو التنبيه إلى جوانبها المؤذية أو التى تضر بمصالح شعوب معينة!

كل ما هنالك أننى أرى أن التسليم بالعولمة كحالة واقعة لا يكون ولا ينبغى أن يكون بشكل مطلق، بل ينبغى أن ننتبه قبل هذا

التسليم إلى جوانبها السيئة التى أن لم تظهر الآن فستظهر بعد حين. ولست وحيدى صاحب هذا التنبيه إلى مخاطر العولمة؛ فقد نبه المختصون فى الاقتصاد إلى التنبيه إلى مخاطرها وآثارها السلبية على اقتصاديات الدول المختلفة.

ولما كنت أعتقد أنه يستحيل أن تذوب ثقافات العالم فى ثقافة واحدة، وأنه ليس من صالح البشرية أن تصطبغ ثقافات العالم كلها بصبغة ثقافة معينة لأن التنوع الثقافى هو الأفضل وفيه الخير للجميع وهو المطية الحقيقية لتقدم البشرية وسعادتها.

ولما كنت أعتقد فى ذات الوقت أن ثقافات وحضارات الشرق أكثر ثراء وأكثر عمقاً وأكثر إدراكاً لحقيقة الإنسان ولخيريته وطرق سعادته. فقد أعلنت موقفى الرافض للتوحد الثقافى على الطريقة الغربية للعالم. الرافض للحوار بين الحضارات من هذا المنظور الغربى المتعصب المتعالى على الآخر أيا كان!! فالحوار الحضارى بين ثقافات العالم ينبغى أن ينطلق من التسليم المسبق لدى جميع الأطراف المتحاورة بما أسميه "التكافؤ الحضارى". فإن سلم الجميع بأن كل حضارة لديها فى ثقافتها ما يمكن أن تقدمه للآخرين، وأن الخصوصية الثقافية لا تتعارض بل تتفاعل مع الحد الأدنى الذى ينبغى أن يتوافر فى أى ثقافة بشرية موجودة فعلاً. إن حدث هذا فإنه

لن يكون هناك ثقافة أفضل من ثقافة، بل كل الثقافات تكون على قدم المساواة فهي جميعاً ثقافات أفرزتها تجمعات البشر عبر العصور، وهي ثقافات تتكامل بتقاطعها معاً وبتفاعلها مع بعضها البعض في تقديم الخير للبشر جميعاً. وما دامت كل ثقافات العالم على قدم المساواة وقابلة لأن تتفاعل وتتطور فإنها جميعاً ستقبل التحاور والتأثير والتأثر دون أن يحس أصحاب ثقافة ما أنهم أصحاب الثقافة الغالبة أو أصحاب الثقافة المغلوبة المقهورة... الخ.

إن فتح النوافذ وأبواب الحوار بين الثقافات ينبغي أن يكون بلا شروط مسبقة، وبلا فرض معايير مسبقة من جانب ثقافة ما!! فهل يقبل الآخر الغربي هذا الأمر على صعيد الواقع أو يقبله ظاهريا ويرفضه وينفذ غيره عملياً كما هو حادث فعلاً الآن؟!! تلك هي القضية التي أتمنى أن يعيها كل دعاة الحوار بين الحضارات اليوم. فالقضية تتلخص من وجهة نظري في أن كل شعوب وحضارات وثقافات العالم غير رافضين للحوار، بل إن الجميع يسعى للتقارب مع الجميع، ولكن السؤال الملح هو: هل يقبل الإنسان الغربي التحاور والتقارب دون شروط مسبقة، ودون أفكار مسبقة يسعى لتحقيقها وفرضها على الآخرين؟!!

التاريخ يقول إن هذا لم يحدث من قبل إلا فى حالات الضعف الغربي، أما الغرب الآن هو الأقوى فكل طاقات العنجهية والعنصرية والتعالى قد تفجرت لفرض الأمر الواقع على الآخرين بصرف النظر عـن رغباتهم أو ثقافتهم أو مراعاة خصوصياتهم .. الخ.. الخ. ولما كـان من الضرورى أن تتجدد وسائل فرض الأمر الواقع ، فإن هذا التجدد فى الوسائل قد أخذ الآن صورة الدعوة إلى حوار الحضارات أو العولمـة.. أيهما أفضل؟! أو أيهما أكثر نعومة لتقبل به الأطراف الأخرى دون تململ ودون ضجر!!!

إذن نحن لسنا ضد الحوار بين الحضارات بصورة مطلقة، بل ضـده إذا كـان الهدف منه فرض تحقيق الغايات الغربية وحدها فى الـنهاية. وكيـف نكـون ضده ونحن أبناء أمة علمت العالم الحوار الحضـارى؛ فقديماً قبلت مصر أن يتعلم أبناء اليونان العلوم والحكمة على أرضها وفى معاهدها – رغم السرية التى كانت الطابع الرسمى للتعـليم الـذى كان يتخذ طابعاً كهنوتيا سرياً – فقد قبل حكماء أون القديمـة أن يعـلموا فيثاغورس الحكمة ومنه انطلقت حكمة اليونان وتأسسـت العـلوم لديهـم! قبلوا أن يعلموا أفلاطون وقد عاد لأثينا ليصـبح فيلسـوف فلاسـفة العـالم القديم كله. نقل عنهم هيرودوت واسـتقبلوه بكـل ود وترحاب وفتحوا له آفاق الحكمة حتى وهم فى

عصـــور تدهورهم وبداية أفول حضارتهم . كيف نكون ضد الحوار العادل المتكافئ بين الحضارات ونحن أبناء أمة قبلت أن تتلقى علوم كل الأمم السابقة وتترجمها إلى اللغة العربية لتقدمها بعد ذلك جاهزة إلى الغـربيين ليبدءوا منها عصر نهضتهم الحديثة. كيف ذلك ونحن أبـناء أمـــة عـــلمت العـــالم الغربى كيف يكون التلاقح الحضارى والاســتفادة مـــن الحضارات الأخرى فلايأنف أعظم فلاسفة العرب المســلمين ابـــن رشـــد مـــن أن يلقب بالشارح الأكبر، ولا يرفض السابقون له لقب المشائين رغم أنهم تجاوزوا الأرسطية والأفلاطونية معاً وطرحوا قضايا فكرية وفلسفية عديدة لم تكن قد طرأت بعد على العقـــل اليونانى كان من بينها قضية التوفيق بين الدين والفلسفة، بين النقل والعقل، بين الشريعة والحكمة.

كيـــف ذلـــك ونحـــن أبـــناء أمة استقبلت الغزاة المستعمرين الغـــربيين فقاومتهم فى البداية ، وقبلت وجودهم كرهاً فى النهاية ثم هضـــمتهم وهضمت حضارتهم فتجاوزتها بالحوار وبالحكمة. هذا ما حـــدث فى عصـــر الإســـكندرية. كما حدث نفس الشىء فى العصر الحديـــث فتكالب الأوربيون على استعمار الأرض وانتهاك الحرمات والأعـــراض ونهـــب الثروات وتحمل أجدادنا وآباؤنا الأمر بعد أن كافحوا وجاهدوا بكل ثمين وغال. فكانت لغة السلاح والقوة هى اللغة

الـــتى تفرض كل ما يريده المستعمر على أبناء الأرض، إلى أن جاء اليوم الذى استيقظ فيه المارد وطرد المحتل .. وماذا بعد؟! هكذا كان تســاؤلنا الدائـــم فى حوار السلاح والقوة مع الغربيين قديماً وحديثاً. وماذا بعد؟! هل يقبل من تعود على الاستعلاء والتعالى وتملكه دائماً غـــرور القـــوة الـــتعايش السلمى مع أمم أهم عناصر ثقافتها التآخى والســـلام والـــتعاون والدعوة إلى الحق بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة؟!

هـــل يقبـــلون ذلك؟! لم أجد فى التاريخ القديم ولا فى التاريخ الحديث والمعاصر ما يؤكد ذلك أو حتى يشير إليه!!

إن مـــا عانـــته شـــعوب الشـــرق عمومـــاً والشعوب العربية والإســـلامية خصوصـــاً من الغربيين هو خير شاهد على أن الحوار الســـلمى الـــذى يســـتهدف التقارب بين الثقافات ويسهل التزاوج بين الحضـــارات ليـــس هدفاً حقيقياً من أهداف الغربيين اللهم إلا إذا كان سيحقق فى النهاية المصالح الغربية وحدها!!

... ومـــع كل ذلك نقول إننا لسنا ضد الحوار بصورة مطلقة، بل ضـــد الحوار أحادى الطرف أحادى الهدف!! إننا مع الحوار إذا كان الآخر يؤمن بالفعل بـــ "التكافؤ الحضارى". إننا لسنا ضد العولمة بما تحققه من تقارب بين شعوب العالم ثقافياً واقتصادياً وسياسياً بصورة

عادلة. لكننا ضدها إذا كانت تستهدف فرض الهيمنة الغربية كما هو حادث الآن ويحدث على شعوب العالم الأخرى بالقوة تارة وبالحوار تارة أخرى، ضدها إذا كانت تستهدف سحق هويات الآخر لصالح الأنا الغربية!! ضدها إذا كان الهدف منها الإبقاء على واذكاء كل عناصر الصراع بين شعوب العالم الأخرى لصالح الأنا الغربية!! ضدها إذا كان الهدف منها الإبقاء على هذا الخلل الواضح فى ما أسموه بالنظام العالمى الجديد بتصنيفاته الجائرة؛ دول الشمال، ودول الجنوب، ودول العالم المتقدم أو العالم الأول ودول العالم الثالث أو الدول المتخلفة!!، دول المركز ودول الأطراف!! إنها جميعاً تصنيفات ومسميات هبطت علينا من آلة الإعلام الغربية وكتابها ومنظريها من المفكرين وعلماء السياسة والاقتصاد . وهى جميعاً مسميات لا تحقق التقارب بقدر ما تزكى الصراع وتكشف عنصرية المسمى والمصنف!

إن ما ننشده من عولمة إذا كان لها أن تكون ، عولمة تحقق العدالة المطلقة بين الشعوب وتحافظ على تعدد الثقافات رغم ما يتحقق بين عناصرها من تقارب ، عولمة يتساوى فى ظلها الجميع ويحترم الجميع فى ظلها الجميع دون تمييز ودون تصنيف لشعوب العالم على أساس اقتصادى أو سياسى أو عرقى أو دينى. فهل هذا ممكن الحدوث أم إننا لا نزال نحلم بيوتوبيا لم يأت أوان تحققها بعد!!

على أية حال فلا نزال قادرين على الحلم، الحلم بعالم مثالى تسوده قيم العدالة والمساواة ، فجره فينا الحديث عن العولمة رغم أننا لا نـــزال ضـــد الدعـــوة إليها من منظورها الغربى المعاصر. فلعل الـــزمن القـــادم فيما تبقى من هذا القرن أو تلك الألفية الجديدة يحمل للأجيـــال القادمـــة تحقق هذا الحلم، فيتحول لأول مرة من مجرد حلم تكـــرر على مدار القرون والألفيات السابقة إلى حقيقة واقعة ينعم فى ظلها البشر، وليس هذا على الله ببعيد.

وكـــل مـــا أتمناه حالياً أن يصبح كتابنا هذا فى طبعته الجديدة بدايـــة لمناقشـــة ولحـــوار أكثر جدية واتساعاً وعمقاً حول موضوع "العولمة".

والله قصد السبيل.

القاهرة – مدينة نصر

فى ١٨ رجب ١٤٢١هـ

الموافق ١٦ أكتوبر ٢٠٠٠م

تصدير

الطبعة الأولى

هذه المقالات العشرون منتقاة من بين عشرات المقالات التى كتبتها خلال السنوات العشر الماضية فى مختلف الصحف والمجلات العربية. ورغم تباين مجالات موضوعاتها بين الفلسفة والأدب والسياسة والتاريخ والأخلاق والعلم والتكنولوجيا .. إلخ، إلا أنه يربط بينها جميعا خط فكرى واحد يعبر عن موقف محدد لصاحبها من كل هذه الموضوعات والقضايا، إنه موقف يرفض القفز فوق الهوية الثقافية العربية – الإسلامية – الشرقية والذوبان فى الثقافة الغربية، فالثقافة الغربية رغم أنها الثقافة السائدة، وأنها الثقافة التى يُنظر إليها على أنها الأكثر تعبيرا عن التقدم، ورغم أنها الأكثر علمية والأكثر قابلية للتطور فى عالم اليوم. أقول رغم كل ذلك فهى ليست الثقافة "الأنموذج"، وليست الثقافة الأكثر صلاحية وتعبيرا عن إنسانية الإنسان. بل على العكس من ذلك تماما فهى ثقافة مادية تعبر عن أحط ما فى الإنسان من غرائز وانفعالات فهى ثقافة تهمل الجوانب الروحية للإنسان. كما أن علميتها اتسقت مع ماديتها؛ فلم يعد العلم الغربى يعر أى اهتمام بالأخلاق الإنسانية، ولم يعد يراع ضرورات الطبيعة والبيئة التى يحيا عليها الإنسان، لقد أصبح الاطراد فى التقدم العلمى آليا لا يراعى شيئا من ذلك. وأثر ذلك

الاطـــراد الآلى فى الـــتقدم العلمى والتكنولوجى على صانعه فأصبح إنسانا آليا لا يعر أى اهتمام بالعواطف السامية أو بالمبادئ الأخلاقية الرفيعة!.

إنه موقف يرفض محاولات الغربيين المستمرة لطمس هوية الثقافات الأخرى وجعلها نسخا مشوهة من الثقافة الغربية ذات البُعد الواحد. ويرفض تلك النظرة المتعالية – العنصرية التى تبرز بين حين وآخر، وفى كل المواقف التى يطل منها الإنسان الغربى ممثلا فى هيئاته وشركاته وحكامه على أبناء الشعوب الأخرى، ويصنفهم إلى عالم ثانى وعالم ثالث، إلى شمال وجنوب، إلى بيض وصفر وسود ..إلخ!!.

إنه موقف يرفض أن تُقيم كل ثقافات العالم وكل نظمه السياسية وكل مبادئه الأخلاقية والدينية من منظور غربى محدود بتحقيق أهداف أيدلوجية ومصالح اقتصادية آنية.

إنه موقف يعى صاحبه أنه ليست الثقافة السائدة بالضرورة هى الثقافة الأفضل والأصلح لقيادة البشرية نحو حياة أفضل!.

إنه موقف يعى صاحبه أن الثقافة الغربية بطبيعتها ثقافة تتخذ منحى عنصريا باستمرار وتتجه دوما فى عصور سيادتها إلى فرض نفسها بالقوة على مختلف شعوب العالم.

إنه موقف يعى صاحبه أن الحوار بين ثقافات العالم كان فى معظم فترات التاريخ حوارا سلميا ماعدا فى الفترات التى سادتها

الحضارة الغربية سواء فى عصر الإسكندر أو فى عصر أباطرة روما أو فى العصر الاستعمارى الحديث. إن تاريخ الصراع بين الغرب والشرق يمتلئ بصور شتى من عنف الإنسان الغربى وهمجيته واعتدائه على حرمات الآخر ونهب ثرواته وتخريب البنى الاقتصادية والاجتماعية له. إنه تاريخ يكشف عن أن الإنسان الغربى يقول دائما غير ما يفعل، ويفعل غير ما يقول؛ يتغنى بقيم الحب والجمال والحق وهو أبعد ما يكون بأفعاله عنها سواء فى حياته الخاصة أو فى تعامله مع الآخر!!.

إنه موقف يعى صاحبه أنه إذا كان البعض يدعو اليوم إلى الحوار بين الثقافات والحضارات، فإن هذا الحوار لا يصح أن يكون بين سيد وعبد، أو بين آمر ومأمور، بل ينبغى أن يكون حوارا تتكافئ فيه الأطراف، يعتز فيه كل طرف بثقافته وهويته الخاصة فى الوقت الذى تتلاقى فيه المصالح وتتضافر فيه الوسائل لتحقيق هذه المصالح والأهداف المشتركة.

إن ما يدعوه البعض الآن بالعولمة ليس دعوة نحو عالمية المصالح والأهداف ولا نحو مراعاة خير الكل، بل هو فى واقع الأمر دعوة إلى تكريس الوضع القائم الذى تسود فيه ازدواجية المعايير، وعدم مراعاة مصالح الآخر ولا مشاعره أو خصوصيته. إنها عولمة غربية المنشأ، غربية الأهداف، غربية الأدوات غربية

الثقافة. ولذلك فهى العولمة ذات البُعد الواحد الذى نرفضه. إنها ليست إلا الوجه الآخر للهيمنة وتكريس تبعية الآخرين لثقافة الغرب وتحقيق مصالح الغرب على حساب ثقافة ومصالح شعوب العالم الأخرى.

إن الداعين إلى العولمة من كُتابنا العرب إنما يتناسون أنه ينبغى التمييز بين مثالية وإيجابية الظاهر وبين خبث وشراسة وضراوة الباطن؛ وأعنى أنه ينبغى أن لا يخدعنا أن الأدوات – أدوات العولمة آتية لا ريب فيها، فليس من شك أن جميع شعوب العالم سوف تستفيد من ثورة الاتصالات والتكنولوجيا المتقدمة التى ستسود القرن المقبل من تبادل سريع للمعلومات والاكتشافات، إلى تبادل أسرع للأفكار والاتجاهات.

إن من حق جميع شعوب العالم أن تساير هذه الثورة المعرفية والاتصالية الهائلة وأن تستفيد من منجزاتها لأنها ليست كما يظن البعض خطأً ملكا للغربيين وحدهم، بل هى نتاج التقدم العلمى المطرد الذى شاركت فيه جميع شعوب العالم بجنسياته المختلفة. ومن ثم فهى ملك للجميع وحق يجب أن يحصل عليه الجميع وأن يستثمروه دون وصاية من أحد!.

إن إيجابية هذه الثورة العلمية – المعلوماتية الجديدة لا يجب أن تخدعنا فتنسينا أنها حق يراد به باطل. فما يراد من هذه الأدوات

بالنسبة للغربيين وخاصة الأمريكيين ليس التقريب بين الثقافات وليس الحوار مع الآخر على الصعيد الفكرى، وليس تبادل السلع والمنتجات على الصعيد الاقتصادى والتجارى، وليس تبادل المصالح وتحقيق العدالة بين الشعوب على الصعيد السياسى.

أقول إن ما يريده الغربيون من هذه الأدوات ليس كل ذلك، وإنما المراد حقا، على الصعيد الفكرى هو فرض الثقافة الغربية وتحويل الثقافات الأخرى إلى ثقافات هامشية موسومة بالتخلف والجمود، أما على الصعيد الاقتصادى فالمراد هو تحويل اقتصاديات الدول الأخرى إلى اقتصاديات تابعة لا تستطيع تحقيق نموها الذاتى إلا اعتمادا على اقتصاديات الدول الغربية وبالذات الاقتصاد الأمريكى، وتحويل شعوب العالم الأخرى إلى شعوب مستهلكة للمنتج الغربى بمختلف أشكاله ونوعياته. وببساطة فالمطلوب هو تحويل شعوب العالم الأخرى إلى شعوب خادمة لا يسمح لها بالمشاركة فى الاقتصاد العالمى إلا بما تملكه من أيد عاملة رخيصة ومواد خام بأقل سعر ممكن وفى النهاية كمستهلكين نهمين لكل ما تنتجه المصانع الغربية سواء الموجودة فى بلادها الأصلية فى أوربا وأمريكا أو فى الفروع التابعة لها فى مختلف بلاد العالم!.

أما على الصعيد السياسى فالمطلوب هو أن تتحول دول العالم الأخرى إلى نماذج مشوهة من ديمقراطية الغرب، خاضعة لما يملى

عليها من قبل الدول الغربية. وإن حكمت هذه الشعوب نفسها فإنها فى الواقع إنما تُحكم بواسطة النُخب التى ترضى عنها النُخب الحاكمة فى الدول الغربية، إن المطلوب هو حكومات تذعن ولا تناور، تطيع ولا تتمرد، تحقق المصالح الغربية دون جدل أو مناقشة!

إن هذه هى صورة الواقع العالمى الذى لا يرضى عنه الغربيون بديلا فى عالم "العولمة". والأمر ليس مجرد كلام منمق يقال وتجرى مناقشته أو الحوار حوله، بل تحول إلى قوانين دولية واتفاقيات ملزمة لجميع الدول التى توقع عليها. وليست اتفاقيات الجات إلا أحد الصور واضحة الدلالة على هذه الاتفاقيات الدولية التى تفرض الهيمنة الغربية وتكرس التبعية لشعوب العالم الأخرى.

وليست القرارات التى تصدر يوما بعد آخر عن مجلس الأمن الدولى وعن هيئة الأمم المتحدة إلا دليلا آخر ناصع الدلالة على هذه الهيمنة الغربية، وعلى البُعد الواحد الذى تصدر معبرة عنه هذه القرارات. إنه البُعد الذى يراعى فقط المصالح الغربية ويعبر فقط عن إرادة الدول الكبرى وخاصة زعيمتها المدللة الولايات المتحدة الأمريكية!!.

إذا كانت هذه هى صورة الواقع الذى لا يقبل الغربيون من خلال مفاهيم "العولمة" و "الكونية" إلا به، فماذا ستفعل شعوب العالم الأخرى لمواجهته؟!

هذا هو السؤال الذى ينبغى أن يقلق الجميع وأن يبحثوا عن إجابة له! ولاشك أن أسهل الإجابات وأرق الحلول هو الحل الذى يرى أصحابه بكل بساطة وسذاجة أن علينا أن نتعامل مع ذلك على أنه أمر واقع وليس فى مقدورنا مقاومته ومن ثم علينا أن نخضع لهذا الواقع وأن نشارك فيه بشكل أو بآخر حتى لا يدهسنا قطار العولمة فنصبح كما يقولون "خارج التاريخ"!!.

ويالللعجب من هذه الإجابة الساذجة وسذاجتها فى اعتقادى تبدو فى صيغة إما .. أو التى يركزون عليها؛ فإما أن نذعن لقيم العولمة كما يراها الغربيون، وإما سنكون خارج التاريخ! والحقيقة فى اعتقادى هى على العكس من ذلك تماما لأن الإذعان لهذه العولمة والتسليم بكل ما يترتب عليها من نتائج واقعية هو الذى سيجعلنا حقا خارج التاريخ!.

إن الصيغة التى أطرحها للتأمل فى ذلك السؤال ومحاولة الإجابة عليه تبدأ من مسلمة أؤمن بها وهى أنه رغم الحوار بين الثقافات ورغم التلاقح بين الحضارات فإنه سيبقى الشرق شرق والغرب غرب، أى أن الثقافة الشرقية بقيمها الأخلاقية والدينية غير قابلة لأن تمحوها ثقافة الغرب مهما علا شأنها وتجبرت أدواتها. والتاريخ الماضى خير شاهد على ما يمكن أن نراه فى المستقبل.

وعلى ذلك ينبغى لأمم الشرق المختلفة أن تتحاور فيما بينها وتكتشف الأرضية المشتركة التى تقف عليها، فعوامل الاتحاد بينها

أكثر من عوامل التفرق، وعوامل التقارب تتغلب على عوامل الاختلاف. والمصالح أكثر تقاربا والأفق أكثر اتساعا ورحابة. وإذا ما تخيلنا تقاربا بين الشعوب الإسلامية أدى إلى تكتل اقتصادى فيما بينها، وإذا ما فعل ذلك حكام العرب رغم اختلاف النظم السياسية، فإن ذلك سيكون النواة الحقيقية للمواجهة! وإذا ما تخيلنا على نفس النحو – وهذا أمر ليس ببعيد تحققه حينما يصل الأمر إلى ذروة التحدى والضرورة الفورية للاستجابة – بأن تقاربا يمكن أن يحدث بين الصين والهند ودول شرق آسيا مع اليابان، فإن هذا سيكون بداية النهاية للعولمة ذات البُعد الواحد. وسيكون هو البداية الحقيقية لقبول الطرف الآخر لعالم واحد وثقافات متعددة. وإذا ما أسرفنا فى الخيال بعض الشىء، فإنه يمكن أن تلتقى فى منتصف القرن القادم أو فى النصف الثانى منه ثقافات الأمم الشرقية ومصالحها الاقتصادية من خلال تقارب متدرج ومحسوب الخطوات بين العرب والمسلمين من ناحية والشعوب الآسيوية والأفريقية من ناحية أخرى وحينئذ سيحسم الصراع لصالح الإنسانية ككل. فشعوب الشرق بطبيعتها هى الشعوب التى تؤمن حقا بإنسانية الإنسان، وتؤمن بضرورة الموازنة بين مطالب الروح ومطالب الجسم، وتؤمن حقا بثقافة السلام وتسلم بحتمية التطور الإنسانى نتيجة للإسهامات المتوازنة والمتوازية لكل شعوب العالم فى مختلف أنماط التقدم الذى يحرزه البشر عبر التاريخ.

إن هذا ليس كلاما طوباويا، وليس حلما من الأحلام، وإنما هو "الممكن" الذى ينبغى أن نسعى إلى تحقيقه بهدوء وباستخدام كل الوسائل التى تتيحها تكنولوجيا وأدوات التقارب والاتصال الحديثة. إننا يمكن أن نستخدم أدوات ما يسمى بالعولمة لكسر طوق الهيمنة الذى يحاول الغربيون بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لفه حول رقابنا وخنقنا به.

وعلى مفكرينا وعلمائنا فى مختلف التخصصات وفى أنحاء عالمنا العربى والإسلامى والشرقى أن يقدموا اسهاماتهم ومقترحاتهم وخططهم فى هذا الإطار، وربما يكون "مستحيل" اليوم، هو الممكن "غدا"، وربما يكون "الممكن" الذى نراه فى الغد هو "الواقع" الذى نراه فى مستقبل الأيام خلال القرن القادم إن شاء الله.

فكل ما يتطلبه ذلك هو وعى أبناء الحاضر بكل أبعاد الواقع الذى يعايشونه حتى يمكنهم استخدام كل أدواته فى كسر حاجز الخوف والتخطيط بوعى يعلو فوق المصالح الشخصية لتحقيق الأهداف القومية فى المستقبل القريب ثم فى المستقبل الأكثر بُعدا وهكذا.

إن حياة الأمم والشعوب لا تقاس بقدر ما أذعنت وسلمت قيادها للأمر الواقع، بل تقاس بقدر قدرتها على مقاومتها للوعى الزائف الذى يتشكل عبر تأثر أبنائها بالثقافة السائدة ــ الغازية،

وبقدر استعادتها لجوهر ثقافتها الأصيلة وتسلحها بأسلحة عصرها وعوامل التقدم فيه. فهذا هو ما يجعلها تقاوم الثقافة الغازية وتتغلب عليها بهضمها والتأثر بعوامل التقدم الإيجابية، وليس بظواهرها السلبية.

إن حياة الأمم والشعوب تقاس بمدى الاستجابة الإيجابية التى يستجيبون بها لما يفرض عليهم من تحديات. وعلى حد تعبير توينبى، فعلى قدر التحدى ينبغى أن تكون الاستجابة، والتحدى الذى يفرضه غرور وغطرسة الغربيين على الشعوب العربية والإسلامية والشرقية عموما هو فى اعتقادى أكبر تحدى واجهناه على مر التاريخ لأنه ليس مجرد تحدى لقوة عسكرية غاشمة يمكن أن نواجهها ونهزمها فى ميدان حربى وباستعداد عسكرى، وإنما هو تحدى شامل متعدد الجوانب يفرض علينا ضرورة الاستجابة الشاملة بالتقدم فى مختلف مجالات الحياة على نفس النحو وبدرجة متسارعة بأقصى قدر من الجدية والطموح.

ولعل القارئ العزيز يجد فى هذه الدراسات والمقالات العشرين إجابة على بعض تساؤلاته الخاصة بكيفية الوعى بالتحديات المفروضة علينا، والخاصة بكيفية مواجهة هذه التحديات والتغلب عليها. إن بها مجرد وجهة نظر لصاحبها وتحتاج لمن يناقشها ويضيف إليها حتى تكتمل صورة الوعى التى نطمح إليها. فليس

الوعى الفردى بهذه القضايا وبطبيعة التحديات هو المطلوب وحده لكى نواجه هذه التحديات بالاستجابات المناسبة لها؛ إذ لابد أن تتسع مساحة الوعى لدى الأفراد شيئا فشيئا حتى يتشكل الوعى الجماعى الذى يمكنه وحده تكوين هذه الاستجابات القادرة على المواجهة.

والحقيقة أن مشكلات كثيرة تحول دون اتساع مساحة الوعى لدى أفراد مجتمعاتنا العربية والإسلامية، إذ لابد أن نعترف أن انتشار الأمية والفقر وأمية بعض المثقفين وأنانية النخب الحاكمة وغياب الحريات وسطحية الأجهزة الإعلامية وغياب الوعى لدى معظم القائمين عليها هى ظواهر ومشكلات حادة تعانى منها مجتمعاتنا ولابد من التخلص منها والتغلب عليها إذا ما تولدت لدينا إرادة التحدى. فالتخلص من هذه المشكلات هو أبسط ما يواجهنا من تحديات، وهو البذرة الخصبة التى يولد فيها الوعى الجماعى ومن ثم الاستجابة الجماعية للتحديات الأهم الملقاة على عاتقنا.

ولست ممن يميلون بطبعهم إلى التشاؤم، بل على العكس إننى أميل إلى التفاؤل بمستقبل أمتنا العربية والإسلامية؛ فبقدر قتامة الحاضر وبقدر كثرة الضربات الموجعة التى نواجهها يوما بعد يوم وازديادها عن الحد الذى يمكن تحمله، بقدر ما سيتولد لدى أبناء هذه الأمة تلقائيا ضرورة التحدى لكل هذه المشكلات وضرورة الاستجابة المناسبة لها. فلاشك عندى أن قتامة وظلام الحاضر هما ما سيولد

عنهما بالضرورة ضياء المستقبل واشراقه، بالضبط كما أن الليل الحالك الظلام يولد بداخله شروق نهار اليوم التالى.

وإنى لألمح فى الأفق جيلا جديدا يتشكل فى رحم هذه الأمة، هو الأقدر على امتلاك أدوات العصر، والأكثر تحررا من قيود التخلف والجمود، سيكون هو الأكثر قدرة على مواجهة التحديات والاستجابة لها. وكل المطلوب هو أن نعمل بجد وتجرد على تمهيد الأرض وبذر البذور لكى يولد هذا الجيل القادم متسلحا بالوعى الضرورى لهذه المواجهة.

وكل الرجاء فى أن يكون بهذه الصفحات التى أقدمها لكم بعض ما يمهد الأرض ويهيئ التربة لخلق هذا الجيل الجديد المنشود.

والله المستعان
وهو من وراء القصد

د. مصطفى النشار
مدينة نصر ـ القاهرة
فى ١١ محرم ١٤١٩هـ الموافق ٧ مايو ١٩٩٨م